

سورة فاطر (الآيات: 14-12)

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف على المظاهر الكونية المضمنة في الآيات .
- 2- أن أستدل على استحقاق الله تعالى وحده للعبادة .
- 3- أن أشكر الله تعالى على نعمه التي حباها بها .

تمهيد

بعد استدلال الآيات السابقة على تفرد سبحانه بالالهية بآيات الأنفس ، واصلت هذه الآيات استدلالها على ذلك بمظاهر أخرى من الظواهر الكونية ، المتمثلة في البحار والليل والنهار والشمس والقمر ، ثم أبطلت ما يعبد المشركون من دون الله ، موضحة أن تلك المعبودات لا تنفع نفسها ولا غيرها .

فما هي مظاهر آيات الله الكونية الواردة في الآيات ؟ وكيف أستدل من خلالها على استحقاق الله وحده للعبادة ؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي السَّحَابُ مَرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَفَلَدٌ مَلْعُاجٌ
وَمِمَّا كَلَّمُوا لَحْمًا مَحْرُومًا وَتَشْتَرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ مَاجًا لَتَبْتَغُوا
مِنْ قَضَائِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَاِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فَخْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا يُسْمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ
وَيَوْمَ الْفِيلَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ [سورة فاطر: 12-14]

الفهم

الشرح:

- عَذْبٌ فُرَاتٍ: شديد العذوبة.
- سَائِغٌ شَرَابُهُ: مريء سهل انحداره في الحلق.
- مَلْعٌ أَجَاجٌ: شديد الملوحة.
- لَحْمًا حَصِيرًا: السمك.
- حَلِيبَةً: اللؤلؤ والمرجان.
- مَوَاحِشٍ: جمع ماخرة وهي السفينة.
- فَخْمِيرٍ: القشر الرقيق الأبيض الذي على نوى التمر.

استخلاص مضامين الآيات:

- 1- ما هي الآيات الكونية الواردة في الآيات؟
- 2- علام استدل الله تعالى بتلك الآيات الكونية؟

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: بعض مظاهر آيات الله الكونية:

بعد الاستدلال على وقوع البعث يوم القيامة، بين في هذه الآيات بعض الأدلة على قدرته وعظمته في خلقه الأشياء المختلفة مع اتحاد منفعتها للإنسان. فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ لَوْلَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَلَوْلَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: هذان البحران لا يتعادلان، أحدهما: فرات بالغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة، والثاني: ملح يحرق بملوحته ويجمع إلى ذلك المرارة، والقصد بالآية: التنبيه على قدرة الله ووحدانيته وإنعامه على عباده.

ثم بين سبحانه وجوه انتفاع الناس بالبحرين العذب والملح؛ فقال عز وجل: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا مَحْرِيًّا وَتُسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ هذا استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم، أي: ومن كلا البحرين تأكلون سمكاً غصاً طرياً ﴿وَتُسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: وتستخرجون منهما الجوهر والمرجان للزينة والتحلي. فإن قيل: إن الحلية لا تخرج إلا من البحر الملح دون العذب، فكيف قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ أي: من كل واحد منهما؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ذلك تجوز في العبارة كما قال: ﴿يَلْمَعُشْرُ الْجَوْوَارِ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: 131] والرسول إنما هي من الإنس.

الثاني: أن المرجان إنما يوجد في البحر الملح حيث تنصب أنهار الماء العذب، أو ينزل المطر فلما كانت الأنهار والمطر وهي البحر العذب تنصب في البحر الملح كان الإخراج منهما جميعاً.

الثالث: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح والعذب ، وهذا قول يبطله الحس ، أي: الواقع .

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلَ يَمُوجُ فِيهِ مَوَاجِرُ﴾ «جمع ماخرة ، يقال: مخرت السفينة . والمخر: شق الماء ، وقيل: صوت جري الفلك بالرياح» [التسهيل: 423/1] ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: سخر لكم البحر لتبتغوا فضل الله بأنواع التجارات وغيرها ، ولتشكروا ربكم على نعمه وفضله بأن سخر لكم ذلك .

ثم استمرت الآيات تعرض مظاهر قدرة الله تعالى في الآفاق ، فقال سبحانه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل كلا منهما في الآخر بما يزيد في أحدهما وينقص من الآخر ، أو بإدخال ظلمة الليل على ضوء النهار وإدخال ضوء النهار على ظلمة الليل . [التسهيل: 140/2] .

ثم بين سبحانه أنه سخر الشمس والقمر بقدرته وإرادته ، فقال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ فِي آجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ذلل الشمس والقمر لصالح العباد . فكل منهما يسير في فلكه إلى يوم القيامة .

ثانيا: دليل استحقاق الله تعالى للعبادة دون غيره:

بعد بيانه تعالى مشاهد من تجليات قدرته وعلمه وحكمته ولطفه ورحمته ، خاطب الناس بقوله: ﴿إِلَهُكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: ذلكم الذي فعل الأمور المتقدمة ، هو ربكم الذي لا رب سواه ولا معبود بحق إلا هو ، له الملك والعظمة والسلطان .

ثم بين سبحانه أن ما يعبده المشركون من دونه لا يستحق العبادة لأن تلك المعبودات فقيرة لا تملك شيئا ، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِضْمِيرٍ﴾ القطمير:

هو القشر الرقيق الأبيض الذي على نوى التمر ، والمعنى أن الأصنام لا يملكون أقل الأشياء كمقدار القطمير ، فكيف أكثرها .

وقد عزز الله تعالى ضعف الأصنام وعجزها بقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أي: إن تدعوا هذه المعبودات من دون الله ، لا يسمعون دعاءكم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنها جمادات لا حس لها ، ولا قدرة لها على النفع ﴿وَيَوْمَ الْفِيلَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: بإشراككم ، فالمصدر مضاف للفاعل .

ونظير هذا ، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَلًا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِيلَةِ وَهُمْ عَرَفُوا عَلَيْهِمْ مَعْلُومًا ۚ وَإِذْ أَخْبَرْنَا النَّاسَ أَنَّكُمْ كَانُوا لِلنَّعْمِ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَةِ تَعِيمٍ كَالْعِرِيِّ﴾ [الأحقاف: 4-5] . وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لِلنَّعْمِ عِزًّا ۚ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَةِ تَعِيمٍ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: 82-83] . ﴿وَلَا يَنْبِيئُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ أي: لا يخبرك بالأمر مخبر مثل مخبر عالم به ، يعني نفسه تعالى في إخباره أن الأصنام تكفر يوم القيامة بمن عبدها .

ثالثا: مقاصد الآيات:

ترشد هذه الآيات في عمومها إلى عدة مقاصد ، منها:

- بيان فضل الله تعالى وإنعامه على عباده بمختلف أصناف النعم ، فقد سخر سبحانه لعباده البحر وما يشتمل عليه من خيرات ، وسخر لهم الليل والنهار ، والشمس والقمر .
- الحث على إخلاص العبادة لله تعالى وحده دون سواه ، إذ هو المستحق للعبادة دون غيره من المعبودات الباطلة التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فضلا أن تملكه لغيرها .

التقويم

- 1- أستنتج الغاية من امتنان الله تعالى على عباده بالنعم الواردة في الآيات.
- 2- كيف أبطل الله تعالى عبادة المشركين لغيره؟
- 3- أربط بين الآيات ومقاصدها الواردة في العنصر الثالث.

الاستثمار

قال الألوسي رحمه الله: «جاء في سورة النحل: ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِيرَ فِيهِ﴾ [النحل: 14] بتقديم مَوَازِيرَ وتأخير ﴿فِيهِ﴾ وعكس ههنا (...) والذي يظهر لي في ذلك أن آية النحل سبقت لتعداد النعم كما يؤذن بذاك سوابقها ولواحقها، وتعقيب الآيات بقوله سبحانه: ﴿وَلِي تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصَوْهَا﴾ [النحل: 18] فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة وهو مخر الفلك للماء، بخلاف ما هنا، فإنه إنما سيق استطراداً أو تيمناً للتمثيل (...). فقدّم فيه ﴿فِيهِ﴾ إيداناً بأنه ليس المقصود بالذات ذلك، وكأنّ الاهتمام بما هناك اقتضى أن يُقال في تلك الآية ﴿وَلِي تَعُدُّوا﴾ بالواو، ومخالفة ما هنا لذلك اقتضت ترك الواو في قوله سبحانه ﴿وَلِي تَعُدُّوا﴾ من فضله أي: من فضل الله تعالى بالنقطة فيها».

[روح المعاني، الألوسي: 11 / 353 (بتصرف)]

أَتَأْمَلُ النَّصَّ وَأُجِيبُ عَنِ الْآتِي:

- أَقَارِنُ بَيْنَ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ وَسُورَةِ فَاطِرٍ، بِخُصُوصِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ...﴾ مَعَ التَّعْلِيلِ.

الإعداد القبلي

أتأمل الآيات: 15-18 من سورة فاطر وأجيب عن الآتي:

1- أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: الْغَفَاءُ إِلَى اللَّهِ - الْغِنَى الْجَمِيدُ - تَزَكَّرَ - لَا يُعْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ - وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ.

2- أنجز بحثاً يتضمن مظاهر العدالة الإلهية بين العباد يوم القيامة من خلال هذه الآيات.